



-1-

مشكلة هذا الرجل أنه يقرأ كثيراً، وقد جمع في مكتبه رفّين كاملين من كتب "أدب السجون" - التي تروي قصص وذكريات الحبس والتعذيب. وقرأها كلها، أكثرها من مصر عبد الناصر وقليل منها من مغرب الحسن وعراقي صدام، حتى صار يُغمض عينيه ويسرح في عالم الخيال فيرى حياة كاملة في الحبس والمعتقلات، ويحسّ بما فيها من معاناة وكربات وعذابات، ويتصوّر ما يختلّ في نفوس المحبسسين من مشاعر وما يدور في أذهانهم من أفكار.

-2-

ووَقَعَتْ في يده ذات يوم روايةٌ صغيرة اسمها "الورطة". كانت النافذة الأولى التي أطلّ منها على عالم "تدمر" الرهيب. كانت نافذةً ضيّقة، ولكنّ ما رأه من خلالها كان أكثرَ مما تُطيق نفسُ المرهفة، فيقي أساييع لا يسوغ لقمةً من طعام ولا يستغرق ساعةً في منام، حتى أرغم نفسه على نسيان تلك الصورة المرعبة لأنها - كما أوحى لنفسه - خيالاتُ أديبٍ فنان. ثم التقى بعد سنوات بالأستاذ شريف الراس فسألَه: هل كانت تلك رواية حقيقة؟ قال: إنّ شخصيات الرواية متخيّلة، ولكنني لم أستخرج أحداثها وتفاصيلها من عالم العدم، بل جمعتها من شهادات حقيقة حصلتُ عليها من شهود كانوا في ذلك الجحيم. ردّ صاحبُنا على مؤلف الرواية بأسى: ليتك قلت إنها محضُ خيالات! ثم تجدّد حزنه فبقي زماناً آخرَ لا يهنا بطعم أو منام.

ثم انفتحت نافذةً أعرض على ذلك العالم الرهيب؛ صدرت رواية محمد سليم حمّاد: "تدمر شاهد ومشهود". حرص صاحبنا على تلقي الخبر من مؤلفها الأردني الزرقاوي، الذي قذفه المخابرات السورية على الحدود الأردنية بعدما جبسته أحد عشر عاماً في الباستيل الرهيب. لم يهتم بسماع المزيد من الفظائع والأهوال، فالرواية (الشهادة) كانت كافية، لكنه كان مهتماً بمعرفة مصير بعض الأشخاص الذين انقطعت أخبارهم منذ بداية المأساة، وهم ابن عم وابنا حالة كانوا من خيرة شباب الشام. تذكر محمد سليم ابن العم. نعم، إنه يعرفه، كان في مهجر مجاور يُمضي الأيام الثقيلة الطويلة المحملة بالقهر والعذاب. وابنا الخالة؟ قال: رحمهما الله، أعدما في السنة الأولى بتهمة حمل السلاح. قال صاحبنا: رحمهما الله، ارتاحا من بلاء الدنيا وأقبلوا على الرحمن الرحيم.

لم يكن صاحبنا قد برأ بعد من جراح القلب حينما نكأتها الشهادة الجديدة: "خمس دقائق وحسب"، التي روت فيها ابنة حماة المؤمنة الصابرة المحتسبة، هبة الدباغ، قصة السنوات التسع التي أمضتها في فروع الأمن وسجون النظام. بعد ذلك بسنوات طويلة قرأ صاحبنا قصة خمس دقائق أخرى، قصة براء السراج القادم أيضاً من حماة. قالوا له كما قالوا لهبة: "تريدك خمس دقائق"، إلا أن دقائقه كانت أطول من دقائقها بألف يوم، ولم تكن بين سجنٍ قطناً ودوماً، بل كان جلها في باستيل تدمير الرهيب. وبين هذه الرواية وهذه قرأ صاحبنا "القصة"؛ إحدى عشرة سنة أخرى في الباستيل مقابل طرفة (نكتة) أضحك الرجل بها رفاقه ذات يوم! نكتة من أحد عشر حرفًا، دفع مصطفى خليفة من عمره - مقابل كل حرف فيها - سنة في العذاب.

الضغط يولد الانفجار. إن شعراً عاش في مثل هذا الأسر والقهر لا بد أن ينفجر، وقد انفجر أخيراً في واحدة من أعظم الثورات في التاريخ، للخلاص من واحد من أسوأ أنظمة الحكم في التاريخ.

انفجرت الثورة السورية المباركة، فحاول النظام المجرم وقفها بالاعتقالات التي بلغت عشرات الآلاف في بضعة أشهر. وما لبثت قصص الاعتقال والتعذيب أن بدأت تخرج شيئاً بعد شيء، فعاهد صاحبنا نفسه أن لا يقرأ شيئاً منها. ولماذا يفعل؟ ليزداد كرههاً بهذا النظام المجرم وحقداً عليه؟ لو جمعت الكراهية التي نُثرت في قلوب أهل الأرض ثم وزنت بما في قلبه من كراهية لنظام الأسد لرجح ما قلبه. ليزداد إصراراً على الثورة؟ لو بقيت في حياته دقيقة لنطق بالشهادتين أولاً ثم استدوعَ أهل سوريا ثورتهم وأوصاهم أن يمضوا فيها إلى لحظة الانتصار، ولو جالدوا هذا النظام المجرم وحلفاءه الأقوية ألف عام.

نعم، قال صاحبنا لنفسه: لا حاجة لي بقراءة قصص الاعتقال والتعذيب، ولا سيما القصص التي تكون حرائر سوريا الصينيات العفيفات جزءاً منها. لكن مشكلة هذا الرجل أنه يقرأ كثيراً، فما لبث أن عاد إلى عادته وراح يقرأ كل ما نشرته الصحفات، فعاد الكابوس ثقيلاً أسوأ من أي وقت كان.

لو حلف صاحبنا أنه لا يكاد يمرّ يوم لا يفكر فيه بالمحظيين وراء القضبان لما حنث. إذا اشتد حر الصيف تسأله: كيف يعيشون في هذا الحر الخانق بلا نسيم من هواء؟ وإذا اشتد برد الشتاء تسأله: ماذا يصنعون في هذا البرد الشديد بلا وطاء ولا غطاء؟ إذا أصابه الصداع (وما أكثر ما يصيبه الصداع) فكر: كيف يصنع المصدوعون هناك بلا دواء؟ فإذا فكر في الصداع

فَكَرْ فِي كُلِّ دَاءٍ يَبْقَى صَاحِبُهُ بِلَا دَوَاءٍ، ثُمَّ فَكَرْ فِي مَا يَصِيبُ الْحَرَائِرَ كُلَّ شَهْرٍ مَرَّةٌ... إِذَا وَصَلَتْ أَفْكَارَهُ إِلَى الْحَرَائِرَ شَهْقٌ وَوَقَفَ عَنِ التَّفْكِيرِ، وَرَفَعَ يَدِيهِ إِلَى السَّمَاءِ فَنَادَى: اللَّهُمَّ اكْشُفْ هَذِهِ الْغَمَّةَ وَارْفَعْ هَذَا الْبَلَاءَ!

-7-

وَالْأَطْفَالُ؛ كَيْفَ يَحْتَمِلُ الْأَطْفَالُ الْضَّعْفَاءَ مَا يَكَادُ يَعْجَزُ عَنْ حَمْلِهِ الرِّجَالُ الْأَشْدَاءُ؟ مِنْذُ أَنْ نَشَرَ صَاحِبُنَا ذَاتَ يَوْمٍ فِي صَفْحَتِهِ مِنْشُورًا بِعِنْوَانِ "أَقْمَارٌ وَرَاءِ الشَّمْسِ" وَهُوَ لَا يَكَادُ يَنْسَى تَلْكَ الْوِجْهَةَ الْبَرِيَّةَ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فَهِيَ تَتَرَاءَى لَهُ فِي الْيَقْظَةِ كَمَا تَتَرَاءَى لَهُ فِي الْمَنَامِ. إِذَا عَجَزَ عَنْ نَسْيَانِهَا (وَأَنَّ لَهُ أَنْ يَنْسَى تَلْكَ الزَّهْرَاتِ!) رَاحَ يَفْكِرُ: هُؤُلَاءِ الْبُنَيَّاتِ وَصَلَانَا خَبْرُهُنَّ وَرَأَيْنَا صُورَهُنَّ، فَمَاذَا عَنْ آلَافٍ لَمْ نَعْرِفُهُمْ مِنْ الْأَطْفَالِ وَآلَافٍ؟ وَاحْرَرْ قُلُبَاهُ وَيَا دَمَعَ عَيْنَاهُ عَلَى الْطَفُولَةِ الْبَرِيَّةِ الْمَسْفُوَّةِ فِي مَذَابِ الْطَغَاءِ.

-8-

مَهْمَا طَالَ اللَّيلُ لَا بَدَ لَهُ مِنْ آخِرٍ، وَإِنَّ أَشَدَ سَاعَاتِ اللَّيلِ ظَلَامًا هُنَّ آخِرُهُ. طَالَ لَيلُ الشَّامِ وَطَالَ حَتَّى يَبلغُ الْخَمْسِينَ وَزَادَ عَامَيْنَ وَنَصْفَ عَامٍ، فَقَدْ أَوْشَكَ فَجَرُ الْحَرِيَّةَ أَنْ يَطْلُعَ عَلَى الشَّامِ عَمَّا قَرِيبٌ بِإِذْنِ اللَّهِ. الْفَجَرُ طَالَ حَتَّى الظُّلْمُ زَائِلٌ لَا مَحَالَةٌ، فَاصْبَرُوا يَا إِخْوَةَ السَّجْنِ، اثْبُتُوا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْأُخْرَى، الْمَوْعِدُ فِي الشَّامِ الْمَحْرُرُ قَرِيبٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَمَنْ سَبَقَ فَالْمَوْعِدَ فِي جَنَانِ الْخَلْدِ بِإِذْنِ الْمَوْلَى الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ.

عَرْشُ الطَّغَاءِ وَحْكَمُ الظُّلْمِ مَنْسَحَقُ *** أَبْشِرْ أَخَيَّ سَيْمُوسِيِّ السَّجْنِ مَلْحَمَةً *** مَثَلُ الْأَسْاطِيرِ تُرَوَى عَبْرَ مَاضِنَا أَبْشِرْ أَخَيَّ سَيْمُوسِيِّ السَّجْنِ مَلْحَمَةً ***

الزلزال السوري

المصادر: